

الفصل الثاني

ابن زيدون في عَصْرِهِ

١ - النشأة والمرَبِّي

وُلِدَ أحمد بن عبد الله بن زيدون بقرطبة سنة ٣٩٤ هـ / ١٠٠٣م في بيت من بيوت أعيانها وفقهائها ، فأبوه فقيه من سلالة بنى مخزوم القرشيين ، وجدته لأمه صاحب الأحكام الوزير أبو بكر محمد^(١) بن محمد بن إبراهيم ، وكلمة صاحب الأحكام تعني أنه اشتغل بالفقه والقضاء .

فهو من بيت حَسَبٍ ونَسَبٍ ، وكان أبوه ثرياً صاحب أموال وضياع ، ويقول المؤرخون عنه إنه توفي بإلبيرة ، بالقرب من غرناطة ، في توجهه إليها لتفقد بعض ضياعه . وحُمِلَ إلى قرطبة ، فدفن فيها ، وإلى ذلك أشار عبادة ابن ماء السماء شاعر قرطبة الكبير في رثائه له ، فقال^(٢) :

أَيُّ رُكْنٍ مِنَ الرِّيَاسَةِ هِيضًا وَجَمُومٍ^(٣) مِنَ المَكَارِمِ غِيضًا
حَمَلُوهُ مِنْ بِلْدَةٍ نَحْوِ أُخْرَى كَيْ يُوَافُوا بِهِ ثَرَاهُ الأَرِيضًا^(٤)
مِثْلَ حَمَلِ السَّحَابِ مَاءً طَيِّبًا لِيَدَاوِيَ بِهِ مَكَانًا مَرِيضًا

وتعبير عبادة بأنه « ركن من الرياسة » يدل في وضوح على أنه كان من

(١) ديوان ابن زيدون (طبعة كامل كيلاني وعبد الرحمن خليفة) ص ١٥٢ .

(٢) نفع الطيب (طبعة ليدن) ٤٣٠/٢ .

(٣) جموم كصبور : البئر الكثيرة الماء ، وغيض مجهول غاوض : نقص وقل .

(٤) الأريض : الزكي المعجب للعين .

رؤساء الدولة الأموية في قرطبة . ويقول ابن الأثير عنه : « كان أحد وجوه أصحاب ابن ذكوان وشيخ الخليفة سليمان ، وشوورَ بقرطبة »^(١) وسليمان هو سليمان المستعين الذي ولي الخلافة هناك من سنة ٣٩٩ إلى سنة ٤٠٧ للهجرة . وابن ذكوان هو أبو العباس أحمد بن محمد بن ذكوان قاضي القضاة بقرطبة حتى سنة ٤٠١ وكان يشاوره ويراجعه في فتاويه وأحكامه ، كما كان مرجع غيره من القضاة وموضع مشورتهم .

واهتم هذا الفقيه العظيم بابنه منذ نعومة أظفاره ، فأحضر له الأديباء والمثقفين ، ووصله بالعلماء والفقهاء من أصحابه ، وكان هو نفسه أول أساتذته ، إذ كان متفنناً في ضروب العلم ، جتم الرواية والمعرفة باللغة والآداب . على أن تلمذته له لم تطل ، فقد توفي وابنه في الحادية عشرة من عمره سنة ٤٠٥ هـ / ١٠١٤ م .

ونظن ظناً أن ابن زيدون لزم صديق أبيه أبي العباس بن ذكوان ، وأفاد من علمه وفقهه ، فقد كان عالم قرطبة الأول في عصره ، وامتدت حياته بعد أبيه إلى سنة ٤١٣ للهجرة . وهو غير أبي بكر بن ذكوان قاضي أني الحزم جمهور الذي رثاه ابن زيدون ، وظن غير واحد ممن كتبوا عنه أنه أستاذه ، وخلطوا بينه وبين ابن ذكوان الكبير^(٢) ، وإنما كان صديقه ورفيقه في التلمذة والدراسة وتوفي سنة ٤٣٥ هـ . ومن أساتذته المهمين أبو بكر مسلم بن أحمد^(٣) ، وكان نحوياً أديباً متقدماً في علم العربية واللغة ورواية الشعر وكتب الأدب ، وكان لتلاميذه كالأب الشفيق والأخ الشقيق ، مجتهداً في تبصيرهم ، متلطفاً في ذلك ، فأعجب به ابن زيدون ، وعكف على دروسه ومحاضراته .

ومما لا شك فيه أن عقل ابن زيدون ليس من صنع هؤلاء الثلاثة وحدهم ،

(١) التكلة لابن الأثير ص ٤٤٦ .

(٢) صنع ذلك كور Gour في كتابه عن ابن زيدون ص ١٦ ونيكل Nykl في كتابه عن الشعر الأندلسي ص ١٠٧ .

(٣) انظر ترجمته في الصلة لابن بشكوال ص ٥٦٧ .

بل هو من صنع قرطبة وجامعتها الكبيرة ، وما كان يُلقَى فيها من الدروس وضروب التعاليم ، إذ كان يختلف ، كغيره من شباب عصره ، إلى العلماء والأدباء هناك ، فينهل من معارفهم وثقافتهم ، ويأخذ من آدابهم وعلومهم ما يشهد به فكره ، ويصقل به لسانه ، وفي ذلك يقول مفاخرًا :

ونجّاني علمٌ توالى فنونهُ كما يتوالى في النظام سخاب^(١)

فهو يقول إن العلم صقله بفنونه المختلفة المتسقة كما يتسق سخاب ، وتتنظم أزهاره . وفي أشعاره ورسائله لَمَعُ كثيرة من هذا العلم ، وأقرأ في رسالتيه الهزلية والحديثة ترسيول المعارف التاريخية تفيض من كل صوب ، وتر ثقافة شاملة بالدراسات الإسلامية والفلسفية . وبجانب ذلك ترى ركاماً من أمثال وأشعار تارة يقتبسها بنصّها ، وتارة يفكها وينثرها في أساليبه .

أما الشعر فلم يبلغ فيه ما بلغه في رسالتيه الآنفيتين من تمثيل معارفه وثقافته ، ومع ذلك لا نزال كلما قرأنا فيه وجدنا أثر الدروس المنظمة التي تلقنها في شبابه وما حشد في ذهنه من فنون ، فلسفة وغير فلسفة ، يقول في بعض شعره :

كان الرضا وأعيدهُ أن يعقب الكون الفسادُ
ويقول هاجياً :

عَرَضْتُ لشعري ولم تتَّعِبْ^(٢) تعارضُ جوهرهُ بالعرضُ

فهو يذكر الكون والفساد والجوهر والعرض مما يدل على ثقافته الفلسفية . وكانت ثقافته بالفقه والحديث واسعة ، ورثها في بيته ، ونماها على أساتذة عصره ، ونراه يقول في بعض مدحه :

ملكُ يسوس الملكَ منه مقلدُ روى عن أبيه فيه ما سنّه الحدُّ

ويقول :

همامُ أغرُّ رويتُ الفخارَ حديثاً إلى سرّوه^(٣) مُسنَدًا

والسنة والتقليد والحديث المسند كل ذلك معروف بين أهل الحديث والفقهاء ،

(١) نجذني : صقلني وهذبني ، والسخاب : قلادة تتخذ من أزهار عطرة ليس فيها من اللؤلؤ

والجوهر شيء .

(٢) تتعب : تخجل .

(٣) السرو : الشرف .

ويظهر أنه درس علم الأصول فحنن نراه يقول لصديقه أبي حفص بن برّد :
وودادى لك نصّ لم يخالفه قياس

يشير بذلك إلى ماهو معروف بين علماء الأصول من تقديم نصّ الكتاب
والسنة المتواترة على القياس العقلي في الأحكام الفقهية ، وهو يقول إن النص
والقياس جميعاً يتفقان في وداده ولا يختلفان . وأكثر في شعره كما أكثر في
ثره من ذكر الأمثال ، ويقول في بعض مدائحه :

أغرمتى ندرس دواوين مجده يرقتنا غريب مجمل أو مصنف

و « الغريب المصنف » كتاب في اللغة لأبي عبيد القاسم بن سلام .
وعلى هذه الشاكلة لا نزال نستقبل في شعره من حين إلى حين بعض الإشارات
الثقافية . وطبع رسائله خاصة بهذا الطابع ، فاضطر القدماء إلى أن يعالجوها
بالشرح والبيان ، حتى يقربوها للأذهان ، وحتى يزيلوا ما فيها من غموض
ولإبهام .

٢ - جبه لولاده وسجنه

ليس لدينا أخبار واضحة عن ابن زيدون في أثناء الفتنة التي انتهت بسقوط الأمويين
وقيام النظام الجمهوري في قرطبة وعلى رأسه أبو الحزم جمهور . وكل ما يمكن
أن يقال في هذا الصدد هو ضرب من الحدس والتخمين ، ويغلب على الظن
أنه لم يقف مكتوف اليدين إزاء الحوادث التي مرت بها بلدته . وفي شعره ما يدل
على أنه كان في حاشية أبي الحزم حين نهوضه للأمر ، ولكن لا ندرى أكان
موظفاً كبيراً أم كان شاعراً يقلد صاحبه قصائده ودرره الثمينة .

والأخبار اللامعة في حياة ابن زيدون الأولى لا تطوف بحياة سياسية على
العموم ، وإنما تطوف بصنمه ومعبوده ولادة بنت الخليفة المستكفي الذي كان
واهنأ متخلفاً ضعيفاً ، مقصراً عن خلال آبائه ، ويصفه أبو حيان مؤرخ
الأندلس بأنه « كان مجبولاً على الجهالة ، عاطلاً من كل خلّة تدل على فضيلة ..

معروفاً بالتخلف والركاكة ، مشهوراً بالشرب والبطالة ، سقيم السر والعلانية ،
أسير الشهوة عاهر الخلوة^(١) »

وفي بيت هذا الخليفة نَبَتَتْ ولادة، وتدل أوصاف ابن زيدون لها على أنها
كانت بيضاء البشرة، ذات شعر أشقر^(٢) ، ولعلها بنت «سكري» المورورية
الجارية الشريرة التي استبدت بالمستكفي، والتي يصفها ابن حيان بأنها كانت
خبيثة^(٣) .

ويظهر أن أبا ولادة عُنِيََ بها، فأحضر لها المعلمين والمثقفين ، ولم تلبث
مواهبها أن استيقظت ، فتفتحت الزهرة التي نبتت في تلك الشجرة ، وفاح
منها أريج الشعر والفن . وكأنها كانت تنتظر موت أبيها سنة ٤١٦ هـ / ١٠٢٥م
حتى يخلو لها الجو ، فما هي إلا عشية أو ضحاها ، حتى أصبح بيتها قبلة
الأدباء والشعراء ، يقول ابن بسام : « وكان مجلسها بقرطبة منتهى لأحرار
المصر ، وفناؤهم لعباً بلياد النظم والنثر ، يعشُّو أهل الأدب إلى ضوء غرَّتْها ،
ويتهاك أفراد الشعراء والكتاب على حلوة عِشْرَتِها ، إلى سهولة حِجَابِها ،
وكثرة مُنْتَابِها »

ولم تكن تصنع ذلك بوقار ، بل كانت تخلطه بدل وعبث واستهتار ،
وصور ذلك ابن بسام فقال : « على أنها - سمح الله لها وتغمد زللها - اطرحت
التحصيل ، وأوجدت إلى القول فيها السبيل ، بقلة مبالاتها ، ومجاهرتها بلذاتها ،
كتبت - زعموا - على أحد عاتق ثوبها :

أنا والله أصلحُ للمعالى وأمشى مِشِيَّتِي وأتبه تِيهَا
وكتبت على الآخر :

وأمكن عاشقي من صَحْنِ خَدِّي وأعطى قُبْلَتِي من يَشْتَهِيهَا^(٤) »

فكان هذا العبث فيها ، وكان جمالها ، وكان شعرها ، وكان غناؤها

(١) الذخيرة ، المجلد الأول ص ٣٨٠ .

(٢) النفع ١٩٣/٢ .

(٣) الذخيرة ، المجلد الأول ص ٣٨٠ .

(٤) نفس المصدر ص ٣٧٦ .

إذ كانت تحسن الضربَ والإيقاع على الآلات الموسيقية ، كان كل ذلك يشعُّ حولها السحر والفتنة ، فتهوى إليها أفئدة الشعراء من قرطبة وغير قرطبة ، فلا تفتأ تنصبأهم ، وتُشعل في قلوبهم نار الهوى والهيام .

وكان ابن زيدون أحدَ من جذبتهم ولادة إلى فلَكها ، وكان لا يزال في ميعة الشباب ، فلم تلبث أن وقعت في أشراك حبه ، وبادلته هياماً بهيام ، وأحسّاً كأن روحيهما تألفتا ، بل لكأنهما احترقتا بلظى العشق والغرام . فقادا حياة محمومة بالحب ، ليس فيها حشمة ، وإنما فيها العنف والجرأة .

ووصف ابن زيدون أول لقاء لها ، فقال : « لما قدَّر اللقاء ، وساعد القضاء ،

كُتبت إلى :

ترقَّب إذا جنَّ الظلامُ زيارتي فأني رأيت الليلَ أكتَمَ للسرِّ
وبى منك ما لو كان بالبدر ما بدآ وبالليل ما أدجى^(١) وبالنجم لم يسرِ
فلما طوى النهار كافوره^(٢) ، ونشر الليل عنبره^(٣) ، أقبلت بقَدِّ كالقضيبي ،
ورِدْف كالكتيب ، وقد أطبقت نرجس المُقل ، على ورد الحجل ، فلنا إلى
روض مدبَّج^(٤) ، وظل سَجَسَج^(٥) ، قد قامت رايات أشجاره ، وفاضت
سلاسل أنهاره ، ودرُّ الطلِّ مشور ، وجيبُ الرَّاح مزور ، فلما شببنا نارها ،
وأدركت فينا ثارها ، باح كل منا بحبه ، وشكا أليم ما بقلبه ، وبتنا بليلة نَجْنِي
أقحوان الثغور ، فلما انفصلتُ عنها صباحاً ، أنشدتها ارتياحاً :

ودعَّ الصبرَ محبٌ ودعَّكُ ذائعٌ من سرِّه ما استودعكُ
يقرع السنُّ على أن لم يكن زاد في تلك الخُطى إذ شبعكُ
يا أخا البدر سناءً وسنِّي حفظ الله زماناً أطلعكُ
إن يطُلُّ بعدك ليلى فلکم بيتُ أشكو قصرَ الليل معك^(٦)

(١) جن الليل وأدجى : أظلم .

(٢) كافوره : بياضه ، والاستمارة واضحة .

(٣) عنبره : سواده .

(٤) مدبج : منقوش مزين بالأزهار والنوار .

(٥) السجج : الهواء المعتدل .

(٦) اللذيرة ، المجلد الأول ص ٣٧٧

وتتابع مثل هذا اللقاء في حدائق قرطبة ذات الأشجار والأزهار المعطرة
بالبندى ، وقضيا هناك أوقاتاً طويلة يتعاطيان كئوس الخمر ، كما يتعاطيان
كئوس الحب والصبابة ، وكل منهما مولّه بصاحبه ، تغمره نشوة العشق .
وحدث أن ألمّ بصاحبها ما جعله يفارقها إلى حين فكتبت إليه :

ألا هلّ لنا من بعد هذا التفرُّق سبيلٌ فيشكو كل صبّ بما لقي
وقد كنت أوقات التزاور في الشتا أبيت على جمرٍ من الشوقٍ مُحرقٍ
فأجابها بقوله :

لحاً اللهُ يوماً لستُ فيه بملتقٍ مُحَيَّاكٍ من أجل النَّوَى والتفرُّقِ
وكيف يطيبُ العيشُ دون مسرّةٍ وأى سرورٍ للكئيبِ المورِّقِ

ورجعا إلى اللقاء وتشاكي الصبابة والهوى . غير أن ولادة لم تلبث أن
تبدلت له ، فتمنعت عليه ، وأذاقته بعد نعيمٍ قُرْبِهَا جحيمَ هجرِهَا ، فكان
يلاطفها ، ويدلّلها، ويتمنى منها النظرة ، ويزعم لها أنه عبْدٌ حبِهَا وأسير عشقِهَا .
ولسنا ندري سبب هذا التمتع إلا ما ساقه ابن بسام من أن ابن زيدون أشار
إلى مغنيها عتّبة أن تعيد صوتاً غنته ، فغضبت ولادة غضباً يدل على حقها
وسوء خلقها ، إذ ظنت أنه يغازلها من دونها ، وسرعان ما أنشدت :

لو كنتُ تُنصِفُ في الهوى ما بيننا لم تهوّ جاريتي ولم تتخسّرِ
وتركتَ غصناً مثمراً يجالسه وجنحتَ للغُصْنِ الذي لم يثمر
ولقد علمتَ بأني بدرُ السما لكنّ دُهَيْتُ لشقوقي بالمشترى

ويسوق صاحب النفع سبباً ثانياً للقطيعة بين العاشقين ، إذ نقد ابن زيدون
بيتاً لها قالت فيه ، وهو :

سقى الله أرضاً قد غدت لك منزلاً بكل سكوبٍ هاطل الوبيلِ مغدقِ

معتلاً بأن النقاد لا سوا ذا الرّمّة لقوله :

ألا يا اسلمى يا دارمى من البلى ولا زال مُنْهَلًا بِجَرَ عَائِكَ القَطْرُ

مع تقديم الدعاء بالسلامة . فقد زعم النقاد بأن هذا أشبه بالدعاء على

المحجوب من الدعاء له ، وإنما المستحسن قول الشاعر :

فَسَقَى دِيَارَكَ غَيْرَ مُفْسِدِهَا صَوَّبُ الرِّبِيعِ وَدِيمَةُ تَهْمِي (١)

ولم يكن ابن زيدون لبقاً في إيراد هذا التقيد على أذن معشوقته ، فازورت عنه ، ولم تعد تغدو معه إلى الرياض والأشجار والأزهار ، فقد اكتفت بأزهارالهجر السامة . وبكى الشاعر ، وأن ، ولم ينفعه بكأوه ولا أئينه .

ويعقد الباحثون في الأدب الأندلسي مقارنات بين حبهما وحب الآخرين ، فدوزي يقرن حبهما إلى حب الشاعر اللاتيني تيبولس Tibullus وصاحبه ديليا Delia ، ويقرن نيكل حبهما إلى حب جورج صاند وألفرد دي موسيه (٢) . ورد كور في كتابه عن ابن زيدون المقارنة الأولى ، وقال إن وجه المقارنة الممكن هو في مظاهر حياة الشاعرين إذ فقد كل منهما وطنه ولم يكن موقفاً في حبه ، أما الظواهر الأدبية عندهما فمختلفة (٣) .

على كل حال انصرفت ولادة عن عاشقها الشاعر الناقد الذي لم يملأ غرورها الفنى ، والذي اعتدى على سلطانها الأدبي . ولم تنتظر طويلاً لتجد عاشقاً جديداً ، فقد كان العشاق كثيرين ، ولكنها اختارت من بينهم هذه المرة لا شاعراً عاطفياً كبيراً ، بل وزيراً خطيراً هو أبو عامر بن عبدوس . وروى ابن بسام هذا التحول إليه ، فقال إنها « مرت به وأمام داره بركة دائمة تتولد عن كثرة الأمطار ، وربما استمدت بشيء مما هنالك من الأقدار ، وقد نشر أبو عامر كميّه ، ونظر في عطفيه ، وحشر أعوانه إليه ، فقالت له : أبا عامر ؛

أنت الخصيبُ وهذه مصرُ فتدفقنا ، فكلا كما بحرُ

فكرته لا يُحير حرفاً ، ولا يرد طرفاً » . وسرعان ما تبعها ، وتبادلا العشق والغرام ، ولم تُجد ابن زيدون توسلاته لمعشوقته وتضرعاته ، وحاول أن يسعى

(١) النصح ٢/٥٦٤ .

(٢) نيكل ص ١٠٦ .

(٣) كور ص ١٣٤ .

إليها من قبل ابن عدوس ، فكتب إليه قصيدة ينذر ويتوعد ، افتتحها بقوله :
 أثمرت هزبر^(١) الشرى إذ ربض^٥ ونبتهته إذ هداً فاغتمض^٥
 وما زلت تبسط^٥ مسترسلا إليه يد البغي لما انقبض^٥
 حذار حذار فإن الكريم^٥ إذاسيم خسفاً أبى فامتعض^٥
 فإن سكوت الشجاع النهو^(٢) س ليس بمانعه أن يععض^٥

واستمر يحذر ويعاتب ، ويلين ويعنف . ولم يستمع ابن عدوس إلى تحذيره وعتابه ، وأيضاً لم تستمع ولادة إلى ما شكاه من آلامه وتباريح حبه ، فإذا يصنع ؟ لقد عرف أن ابن عدوس يستخدم في مراسلاته سيدة تزينه في عيني صاحبه ، وأنها يتراسلان كثيراً عن طريقها ، فكتب إلى ولادة رسالة طويلة تُعرف بالرسالة الخزلية سخر فيها على لسانها من ابن عدوس سخرية مرة ، وتوسل إليها أن ترسلها إليه ، حتى تقطع العلائق التي نشبت ، والوشائج التي التحمت . وغضبت ولادة وحنقت عليه حنقاً شديداً ، وهجته بيتين قبيحين ، وصفته فيهما بأوصاف خبيثة . ولم يلبث ابن عدوس وبعض خصومه أن نسبوا إليه أنه يشترك في مؤامرة على السلطان وتصادف أن اتهم بالاستيلاء على عقار لبعض مواليه بعد وفاته ، فوضعت في يديه الأغلال ، وقُدِّم إلى المحاكمة .

وكان القاضي الذي تولى محاكمته هو أبو محمد عبد الله بن أحمد المعروف بابن المكوي الذي ولي قضاء قرطبة في المحرم من سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة ، وكانت بينه وبين الشاعر موجدة قديمة ، ويقول ابن سعيد في المغرب إنه «استخف بكثير من وجوه الناس»^(٣) فلما عرضت عليه قضيته أمر توا بسجنه وشدَّ فيه .

وكتب الشاعر من سجنه قصائد بديعة يناشد فيها أبا الحزم جهوراً أن يعفوه عنه ، وأن يرفع حرمة منه ، وأن لا يستمع إلى ما قاله الوشاة :
 أئين^٥ زعم الواشون ما ليس مزعماً تُعذر^(٤) في نصري وتُعذر^(٥) في خذلي

(١) الهزبر : الأسد .

(٢) الشجاع هنا : ضرب من الحيات ، والنهوس : العاص .

(٣) المغرب في حلى المغرب (طبعة دار المعارف) ١/١٦٠ .

(٤) تعذر : لا تجد عذراً .

(٥) تعذر : تاتمس عذراً .

ولو أنى وقعتُ عمداً خطيئةً
فلم أستثر حرباً^(١) «الفجار» ولم أطمع
ومثلى قد تهفو به نشوة الصبا
وإني لتهنأى نهى عن التى
لما كان بدءاً من سجاياك أن تملى
مُسَيِّلمة^(٢) إذ قال إني من الرُّسلِ
ومثلك من يعفو ومالك من مثل
أشاد بها الواشى ويعقلنى^(٣) عَقَلِي

ولم يكتف ابن زيدون بأشعاره وقصائده الطنانة، فديج رسالة إلى أبي الحزم
تشهر باسم الرسالة الجديّة يستعطفه فيها ، وكأنما كان في أذنى الوزير وقر
أو صَمَمٌ ، فذهب يقول :

قل للوزير وقد قطعتُ بمدحه
لم تُخطِ في أمرى الصوابَ موفقاً
زمناً فكان السجنُ منه ثوابي
هذا جزاءُ الشاعر الكذاب

وتحول إلى أبي الوليد بن أبي الحزم يمدحه ، ويتخذة وسيلة إلى أبيه لعله
يعفو عنه أو يصفح ، ولكن ذنبه كان عظيماً ، فلم تفتح مغاليتي سمع أبي الحزم ،
وعيناً توصل ابن زيدون بكاتبه الكبير وصديقه ابن بُرْد ، فقد كان الجميع
يرهبون أن يجرى اسمه على لسانهم . ولما انسدت أمامه جميع الأبواب صمم على
الهروب من هذا الشقاء ، ففرّ من سجنه ليلة عيد الأضحى ، وظل في ضواحي
قرطبة يضرع إلى أبي الحزم أن يغفر له ما قدّم مستعيناً بأستاذه أبي بكر مسلم
بن أحمد . وأخيراً عفا عنه أبو الحزم ، وربما كان لابنه أبي الوليد الفضل
الأول في ذلك ، إذ كان ابن زيدون صديقه ، وكان قريباً من نفسه .

وفي هذه الأثناء لم ينقطع حبه لولادة ، بل ظل يذكرها ويعاتبها على ما كان
من هجرها ، بل من غدرها وعدم وفائها ، وبيعها لحبه بيعة بخس ووكس ،
وهو يفسح عن ذلك في لهفة وحرقة وحنين وشجى بالغ ، ومن خير الأمثلة
التي تصور قروحه وجروحه النفسية حينئذ قصيدته التي أرسلها إليها بعد خروجه
من السجن ، ويقال إنه بعث بها إليها من إشبيلية ، وفيها يقول :

بِنِّمِّ وينا فما ابتلت جِوَانِحُنَا
شوقاً إليكم ولا جفّت مآقينا

(١) حرب الفجار : كانت في الجاهلية بين قريش وبنى عامر ، إذ انتهك الأخيرون
حرمة الحرم وقديته .

(٢) سيلمّة : متبىء قتل في حرب الردة .

(٣) يعقلنى : يمننى .

٣ - في بلاط أبي الوليد بن جمهور

حظى الشاعر بأمر العفو عنه ، فلزم أبا الوليد بن جمهور بمدحه ، كأنه يريد أن يرد معروفه وجميله إليه ، فانعقدت بينهما حبال مودة أكيدة ، وتوثقت عُرّاً صداقة متينة . وكان الشاعر في أثناء ذلك يمدح أبا الحزم بالخلق المتين والسياسة الرشيدة ، والمحند الشريف ، والرأى الحصيف :

ولم يلبث أبو الحزم أن توفي سنة ٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م وخلفه أبو الوليد ابنه ، فعينه للنظر على أهل الذمة ، ثم رفعه إلى مرتبة الوزارة ، فعلا نجمة وحلق في السماء . وذهب يظني عليه مدائحه ، ويخلع عليه قصائده ، ومن بديع شعره فيه :

مَلِكٌ لَدَى جَنَّتِي العَيْشِ بِهِ	حَيْثُ وِرْدُ الأَمْنِ لِلصَّادِي عَكَلٌ
يَا بَنِي جَهْوَرِ الدِنْيَا بِكُمْ	حَلَيْتُ أَيَامُهَا بَعْدَ العَطَسِ
إِنَّمَا دَوْلَتُكُمْ وَاسْطَةُ	أَهْدَتِ الحَسَنَ إِلَى عِقْدِ الدَوْلِ
نَحْسَنُ مِنْ نَعْمَاتِكُمْ فِي زَهْرَةٍ	جَدَدَتِ عَهْدَ الرِّبِيْعِ المَقْتَبِلِ
طَابَ كَانُونٌ لَنَا أَثْنَاءَهَا	فَكَأَنَّ الشَّمْسَ حَلَّتْ بِالحَمَلِ
زَهَرَتْ أَخْلَاقُكُمْ فَابْتَسَمْتُ	كَابْتَسَامَ الوَرْدِ عَنِ لَوْلُؤِي طَلِّ

وتفويض أشعاره في أبي الوليد بالإخلاص . وقابل أبو الوليد هذه الأشعار باتخاذ سفيراً له بينه وبين ملوك الطوائف ، لعله ينسى حبه الذي كان يعرف أنه لا يزال متقدماً بين جوانحه ، أو لعله يتسلى عن هواه . وكان ذلك سبباً في أن اشتهر اسمه ، وكثر أصدقاؤه بين ملوك عصره وشعرائهم ، كما كثر في ديوانه تشوقه إلى قرطبة ومعاهدتها وهو غريب عنها تارة في مالقة وتارة في بطليوس أو في بلنسية أو في طرطوشة ، وفيها يقول متشوقاً إلى وطنه :

غَرِيبٌ بِأَقْصَى الشَّرْقِ يَشْكُرُ لِلصَّبَا	تَحْمَلُهَا مِنْهُ السَّلَامَ إِلَى الغَرْبِ
وَمَا ضَرَّ أَنْفَاسَ الصَّبَا فِي أَحْتِمَالِهَا	سَلَامَ هَوَى يَهْدِيهِ جِسْمٌ إِلَى قَلْبِ

ويدور في ديوانه شعر يتصل بهذه السفارات والرحلات ومن تعرف عليهم

من الملوك والوزراء ، وقد أعجب خاصة بابن عبد العزيز صاحب بلنسية ،
وفيه يقول :

مهما ذممتُ فما زما في ذِمَامِكَ بِالذَّمِيمِ
زَمَنْ كَمَا لَوْفِ الرِّضَا عَ تَشْوِقِ ذِكْرَاهِ الْفَطِيمِ
اللَّهِ يَعْلَمُ أَنَّ حُبَّ لِكَ مِنْ فَوَادِي فِي الصَّمِيمِ
وَلَنْ تَحْمَلَ عَنْكَ لِي جِسْمٌ فَعَنْ قَلْبٍ مَقِيمِ

وعلى شاكلة ما يذكر ابن عبد العزيز ، ويثنى عليه ، يذكر المظفر صاحب بطليوس ، ويثنى عليه وعلى آبائه وكريم ضيافته له وحسن استقباله^(١) . ولم تنسه هذه الرحلات والسفارات حبه ، ولا شغلته عن هواه ، فهو دائم الحنين والتلهف على البعد كشأنه في القرب ، لا يستطيع أن ينسى ، ولا أن يشغل قلبه بغير صاحبه التي نفرت منه ، وأغلقت أبوابها دونه ، وإنه ليذكرها في كل مكان ، فيقطر قلبه عشقاً وصبوة . وأسى وحسرة ، يقول وهو في بطليوس :
خَلِيلِي لَا فِطْرٌ يَسْرُ وَلَا أَضْحَى فَمَا حَالُ مَنْ أَمْسَى مَشَوْقًا كَمَا أَضْحَى
لَنْ شَاقِي (شَرْقٍ)^(٢) الْعُقَابِ فَلَمْ أَزَلْ أَخْصُ بِمَحْوُضِ الْهَوَى ذَلِكَ السَّفْحَا
وَمَا انْفَكَّ (جَوْفُ الرِّصَافَةِ) مُشْعَرِي دَوَاعِي ذِكْرِي تَعْقِبُ الْأَسْفَ الْبِرْحَا
وَلَيْسَ ذَمِيمًا عَهْدُ (مَجْلِسِ نَاصِحِ) فَأَقْبَلْ فِي قَرَطِ الْوَلُوعِ بِهِ نَصْحَا
وعلى هذا النحو لم يستطع أن يغرق في لجاج رحلاته عذاب حبه ، وألم عشقه . على أن العلاقة لم تلبث أن اضطربت بينه وبين أبي الوليد وسرعان ما رحل عنه إلى المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية ، ويحار من بحثوا ابن زيدون في سبب رحيله عن صاحبه . ولكن في الديوان قصيدة على رأسها هذه العبارة « وقال عند نكبة بني ذكوان وابن حذام في سنة ٤٤٠ هـ » وفي كتاب « المغرب في حل المغرب » ترجمة لأبي علي حسن^(٣) بن محمد بن ذكوان قاضي أبي الوليد ، وفيها أنه « خَلَطَ فِي مَهَاوِدَةِ ابْنِ عَمِّهِ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ ذَكْوَانَ وَالرَّهَيْطَ الَّذِينَ سَعَوْا فِي الْوُثُوبِ عَلَى السُّلْطَانِ بِقَرْطَبَةِ فَعَزَلَهُ أَبُو الْوَلِيدِ فِي صَدْرِ

(١) الديوان ص ٢٢٧ .

(٢) ما بين أفواس أسماء مواضع كان يرتادها مع صاحبه .

(٣) انظر المغرب في حل المغرب (طبع دار المعارف) ١٦٠/١ .

ربيع الأول سنة أربعين وأربعمائة ، وألزمه منزله .
فهذه النكبة التي نظمت قصيدة ابن زيدون بصدها إنما كانت ثورة على
أبي الوليد ، ومن يقرأ القصيدة يستطيع أن يرى الشاعر فيها مضطرباً قلقاً ،
يحاول أن يبرئ ساحته من إثم هذه الجماعة النائرة ، حتى ليقول :
« ماللمتاب الذي أحصفت^(١) عقْدتهُ قد خامر القلبُ من تضييعه جَزَعُ
وأكبر الظن أنه قد اتضح سببُ رحيل ابن زيدون عن قرطبة ، فقد جفاه
أبو الوليد بعد ثورة أصدقائه من بني ذكوان ، وأحاطت به بعضُ الشبه ،
فانبرى في قصيدته ينفىها ، ولكن ما بينه وبين صاحبه كان قد قُطِع ، ففكر
في الرحيل ، وتذكرَ إشبيلية وصاحبها المعتضد الذي كان يجذب الشعراء والأدباء
إلى بلاطه ، فكاتب أبا عامر بن مسلمة القرطبي الشاعر الأديب ، الذي هاجر
من قبله إليه ، وندبه ليعرض خدماته عليه ، فلما علم المعتضد برغبته في المثول
بمحضرته رحَّبَ به ، لما يعلم من كياسته ومواهبه ، وأرسل في طلبه^(٢) .

٤ - في بلاط بني عباد

خرج ابن زيدون من قرطبة بعد أن ضاق بها وبعد أن أصبحت في عينيه
كأنها القبو المظلم ، فقد انطلقاً المصباح الأخير في القبو ، مصباح أبي الوليد بن
جهور ، ولم يعد يرى إلا ظلمات بعضها فوق بعض . فتلمس الهروب ،
وتلمس الطريق ، وبينما هو كذلك لمح نور المعتضد من بعيد ، فتسلل مسرعاً
إليه ، قاطعاً المفاوز والمراحل . وعلم المعتضد بقدمه ، فتلقاه في وزرائه
وأعيان بلده وقضاته وشعرائه ، واحتفل به احتفالاً رائعاً ، وأفاض عليه
الخلع السوابغ وألئى إليه بمقاليد وزارته ، وضم إليه جميع أمور دولته ، وكأنه
رأى في تحوله إليه تحول قرطبة كلها إلى سلطانه .

ونزل ابن زيدون في بيت صديقه أبي عامر بن مسلمة ، وكان مشغولاً
بالرَّاح ، مثل أميره المعتضد ، وله ألف كتاباً فيها سماه « حديقة الارتياح في

(١) أحصفت : أحكت .

(٢) انظر في ذلك الذخيرة ، المجلد الأول ، ص ٣٣٨ وما بعدها .

وصف حقيقة الراح « وأترع لابن زيدون كثوسه منها ، ونظما معاً مقطعات مختلفة فيها ، من مثل قول ابن زيدون مخاطباً له :

أدرها فقد حسن المجلسُ وقد آن أن تُترع الأكوُسُ
ولا بأس إن كان وليّ الربيعُ إذا لم تجد فقدةُ الأُنسُ
فإن خلال أبي عامرٍ بها يحضُرُ الورْدُ والنرجسُ

ولم يستطع ابن زيدون أن يجارى صاحبه ، فابتعد عنه ، وكان ذلك سبباً لتلاوم نشب بينهما ، غير أن ابن زيدون اعتذر لصديقه بأن معاقره العقار تضره ، وأن الخمر تبرح به ، وذكر أنه لا ينسى له نعيم عيشه عنده وساعات لوه^(١)

وتبوأ مجلسه ووزارته بالقرب من المعتضد ، ولزم حوُمته واتصل بسياسته ، وصدر عن قوسه فيما يُحِلُّ ويُبْرِم ، ويعقد ويعزم ، نائراً فوق تاجه درر شعره وأزهار فنه ، وربما كانت قصيدته الفائية فيه خير مدائحها جميعاً ، وفيها يقول :

همامٌ يزين الدهرَ منه وأهله مليكٌ فقيهٌ كاتبٌ متفلسفٌ
يتيه بمسرقاه سريرٌ ومنبرٌ ويحمد مسعاه حسامٌ ومصحفٌ
ممرُّ القوي^(٢) لا يملأُ الخطبُ صدره وليس الأمرُ فائتٌ يتلهفٌ
جحيمٌ لعاصيه يُشَبُّ وقوده وجنةٌ عدنٌ للمطيعين تُزَلَفُ

ولم يترك مناسبة عيد ولا غير عيد إلا انتهر الفرصة لمذح المعتضد وبيان سياسته الخفيفة وحروبه المظفرة على خصومه ، وتصادف أن كان المعتضد سعيد الطالع في وقائعه وغزواته ، فأكثر من تهنئته ونثر الرياحين أمام مقدمه . وما زال في المكان الرفيع منه حتى توفي المعتضد سنة ٤٦١ للهجرة ، وخلفه ابنه المعتمد ، فحاول حساده أن يبعده عنه ، ولكنه انتصر عليهم ، إذ قربه منه المعتمد ، بل رفعه إلى الذروة من مشورته ووزارته . ولما حاول غزو قرطبة مسقط رأسه كان جل اعتماده عليه .

وسارت حياة ابن زيدون في عهد المعتمد سيرة كلها مسرة وهناءة ، فليس

(١) النسخ ١٨٦/٢ .

(٢) ممر القوي : مستحکم القوي مکتبها .

هناك ما يكدر صفاء عيشه إلا بعض أمراض تطوف به ، أما ما عدا ذلك فكان كله لحظات هو وطرب ، ويكفي أنه كان في إشبيلية ، بلدة الحمر والموسيقى والغناء ، وأنه كان في بلاط المعتمد الذي اجتمعت في قصوره زينة الدنيا ومباهجها ، حتى لكان حياته ، سوى أيام حربه ، انتظمت حفلات ، وكأن لياليه اتسقت « كرنفالات » وفي الديوان مقطوعة يشوقه ابن زيدون فيها إلى تعاطي الحمياً في قصره « المبارك والثريا » .

وطبعي أن يسوق المعتمد ووزيره ابن زيدون ووزرائه الآخرون وكل من اتصل بهم وعاش معهم في بلدتهم حياة لاهية ، فقد دانت لهم دنيا الأندلس ، وأصبح المعتمد كبير ملوكها ، يحكم أكثر مدنها وبلدانها . ولكن الوشاة والحساد لا يزالون يلاحقون ابن زيدون ، وينفسون عليه مكانته وحظوته من المعتمد ، فبينما هو معه في قرطبة ثارت العامة على اليهود في إشبيلية ، فأشار منافسوه ، وخاصة ابن عمار وابن مرتين ، على المعتمد أن يرسل ابن زيدون لتهدئة الثورة . وكانت السن قد تقدمت به ، وكان يشعر بمرض أخذ يلم بجسمه الواهن الضعيف ، ولكنه خضع لأمر المعتمد ، ولم يكده يصل إلى إشبيلية ، حتى ثقل عليه مرضه ، وسرعان ما لبس نداء ربه في الخامس عشر من رجب سنة ٤٦٣ للهجرة . ولم يغفل ابن زيدون في هذه الحقبة الأخيرة من حياته عن ذكر معشوقته القديمة ، بل كان دائم الوله بها ، فروحها هي التي يناجياها في مطالع قصائده للمعتضد والمعتمد ، وكان يخصها بكثير من المقطوعات ينظمها من حين إلى حين ، وكان لا يزال يذكر ليلتها الأولى معه ، فقد بات بإحدى جنّات إشبيلية ، فقال :

وليل أدمنّا فيه شرب مدامة إلى أن بدا للصبح في الليل تأثير
وجاءت نجوم الصبح تضرب في الدجى فولّت نجوم الليل والليل مقهور
فحزنا من اللذات أطيب طيبها ولم يعرنا هم ولا عاق تكدير
خلا أنه لو طال دامت مسرتي ولكن ليالى الوصل فيهن تقصير

فذكرى لياليها دائماً كانت في ذهنه ، وكان اسمها دائماً على لسانه ، وكان لا يزال يترنّ في سمعه ، كما كان يحيا وجهها لا يزال يترامى له في يقظته وفي أحلامه ، وما زال وفيّاً لعهداها ، باراً بحبها ، حتى قرع القضاء بابه ، ولفظ أنفاسه .